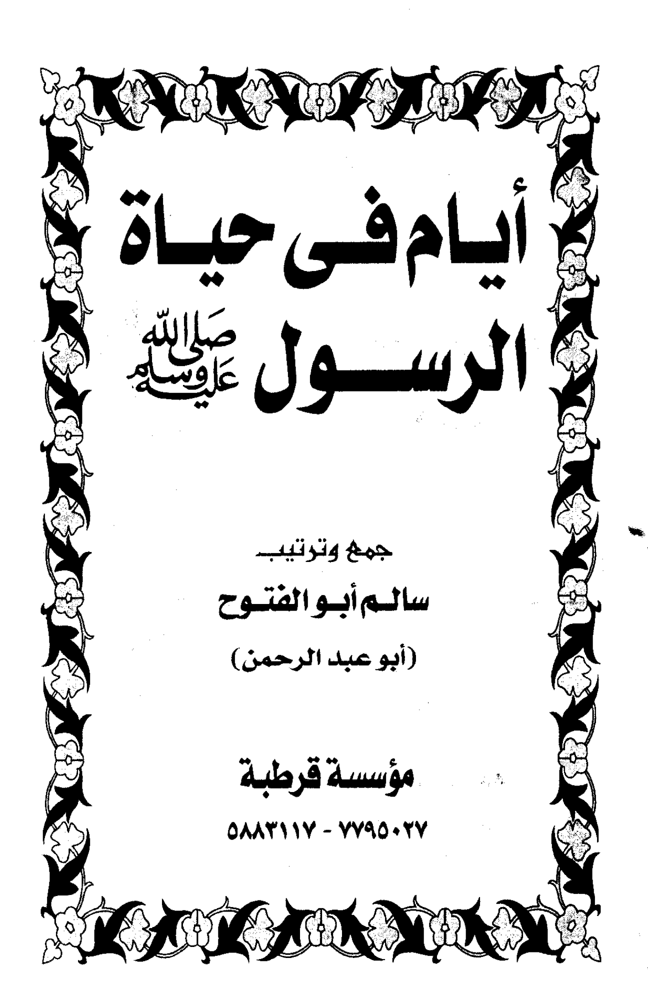


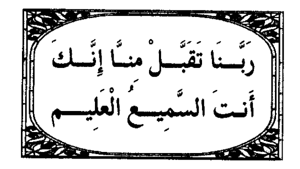
أيام فى حياة الرسول ﷺ

جمع وترتيب

سالم أبو الفتوح
(أبو عبد الرحمن)

مؤسسة قرطبة
٥٨٨٣١١٧ - ٧٧٩٥٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٢٩٠٨

التجهيز الفنى: إبراهيم حسن

ت: ٠١٢٢٩٤٤٧٩٦

الناشر مؤسسة قرطبة

٦٤ ش الخليفة - مدينة الأندلس - الهرم ت: ٧٧٩٥٠٢٧

٥ ش الباب الأخضر - ميدان الحسين ت: ٥٨٨٣١١٧

مؤسسة قرطبة

للطبع والنشر والتوزيع

٦٤ شارع الخليفة مدينة

الأندلس - الهرم

ت: ٧٧٩٥٠٢٧

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ. أما بعد..

فإن هناك عظماء كثيرون، يقرأ الناس قصص حياتهم؛ ليتملّوا من عناصر النبوغ فيها، وليتابعوا بإعجاب مسالكها فى الحياة، ومواقفها بإزاء ما يعرض لها من مشكلات وصعاب، وقد تكون هذه القراءة المجردة هى الرباط الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة.

وأبادر إلى القول: بأنى لم أكتب عن صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه) وفى نفسى هذا المعنى المحدود.

فأنا رجل مسلم عن علم، أعرف لِمَ آمنت بالله رب العالمين، ولِمَ صدقت بنبوة محمد ﷺ. ولِمَ اتبعت الكتاب الذى جاء به، بل لِمَ أدعوا الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله.

ومحمد ﷺ ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن، ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان - ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، ويتأوهون أو لا يتأوهون، فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير - فى الإبانة عن تعلقهم

بنبيهم - إلا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله؛ فاكتفوا بالمظاهر والأشكال.

ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام، فقد افتنوا فى اختلاق صور أخرى، ولا عليهم فهى لن تكلفهم جهدًا ينكصون عنه! إن الجهد الذى يتطلب الغُرْمات هو فى الاستمساك باللباب المهجور، والعودة إلى جوهر الدين ذاته.

فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه، حتى يكون قريبًا من سنن محمد ﷺ فى معاشه ومعاده، وسلمه وحربه، وعلمه وعمله، وعباداته وعاداته.

وقد جمعت لكم بعض الأيام من حياة رسول الله ﷺ فيها الأسوة والقدوة. واخترتها بعناية من بدء ولادته، والتضييق عليه، ثم الفرج والنصر والفتح؛ لأعطى الأمل لهذه الأمة فى غد مشرق للإسلام.

وهذه الأيام هى:

١ - يوم النور. ٢ - يوم البناء.

٣ - يوم الوحى. ٤ - يوم الجهر بالحق.

٥ - يوم التفاوض. ٦ - يوم محنة الطائف.

٧ - يوم المهاجر الأمين. ٨ - يوم بدر.

٩ - يوم الخندق. ١٠ - يوم خيبر.

١١ - يوم الفتح الأعظم.

١٢ - من الأحكام الشرعية التى تؤخذ من يوم الفتح.

١٣ - يوم الوفاة. ١٤ - خاتمـــة.

يوم النور «يوم الميلاد»

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: ١٧٤).

• ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ :

ولد الحبيب المصطفى يوم الإثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول(١).

والمجمع عليه أنه (عليه الصلاة والسلام) ولد عام الفيل(٢).

وكانت ولادته فى بيت أبى طالب بشعب بنى هاشم(٣).

نسبه: ولد فى أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من أشرف فروع قريش. وقد ورد فى شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: «أن النبى ﷺ قال: إن الله - عز وجل - اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم(٤).

نشأ يتيمًا، فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين فحسب، ولما أصبح له من العمر ست سنوات، ماتت أمه آمنة، فذاق

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، لإبراهيم العلى «ص ٤٧».

(٢) انظر: ابن كثير - مجلد واحد: (١/ ٢٠٣).

(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية، ص ٤٧.

(٤) رواه مسلم، كتاب الفضائل، «باب فضل نسب النبى (ص ٤/ ١٧٨٢ رقم: ٢٢٧٦)».

ﷺ فى صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب، ثم توفى ورسول الله ابن ثمانى سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب، حتى نشأ واشتد ساعده، وإلى يتمه أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ (الضحى: ٦).

حفظه من الشيطان: «عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - أن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون»[1].

وشىء واحد هو الذى نستطيع استنتاجه من هذا الأثر أن بشرًا ممتازًا كمحمد لا تدعه العناية فردًا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس، وقد اعتاد الناس فى مولد الرسول نصب الرايات، ودق الطبول، ورفع الأعلام، مع أن تحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شىء ذو بال، فالمحافل التى تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوى لا صلة له بالشريعة.

إننا كثيرًا ما نقف عند الأشياء التى لا تُسمن ولا تغنى من جوع، ولطالما سمعت وأنا صغير قصة المولد يقرءونها فى القرى والأرياف،

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١/ ١٠١ - ١٠٢).

ومعظم هذه القصة يدور حول أشياء وخوارق ليس فيها هذا الأمر الذى نريده: جانب القدوة، جانب التأسى، جانب العظمة فى سيرة محمد ﷺ وفى رسالته طالما رأينا المؤذنين يؤذنون على المآذن والمنائر، يقولون الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله!! ولم يثبت أنه أول خلق الله. الصلاة والسلام عليك يا مليح الوجه يا رسول الله!! أفى ملاحة الوجه هذه مجال للقدوة؟!

ونحن إذا أردنا أن نحتفل بذكرى المولد الشريف، احتفالاً يرضى خالقنا، ويكون سببًا فى شفاعة نبينا - فعلينا أن نقتدى بصاحب الذكرى؛ نقتدى به فى عبادته، نقتدى به فى مداومته على طاعة الله، نقتدى به ﷺ فى رضاه وفى غضبه وفى حبه لأصحابه، نقتدى به فى ثباته على دعوته، وفى حرصه على نشرها.

فمثلاً خذوا الجانب الربانى من سيرته وحياته ﷺ جانب التعبد لله تبارك وتعالى، فإن من يقرأ فى هذا الجانب؛ جانب العبادة.. الصلاة.. الصيام.. الذكر والتسبيح.. التهليل.. التكبير.. الدعاء.. الاستغفار؛ يجد قلبًا نابضًا بحب الله تبارك وتعالى، يجد لسانًا رطبًا بذكر الله تعالى، لا ينساه على كل حال، يذكر الله فى كل أحواله ولننظر إلى الرسول العابد الذى أمره الله تعالى بقوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩) فكان يعبده فى ليله ونهاره، وصباحه ومسائه، فى خلوته وجولته، لا يفتر عن عبادة ربه، وكان يعلم أن الإنسان ما خلق إلا لعبادة الله، وأن عبادة الله هى المهمة الأولى لهذا

المخلوق. كان يعلم أن مهمته أن يعبد الله عبادة مبنية على معرفة به؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

لهذا كان ﷺ أكثر الناس إقبالاً على الله، ولم تكن عبادته مجرد تسديد خانة، أو امتثال لأمر، بل كانت عبادته - عبادة الحب والشوق إلى الله سبحانه وتعالى. كان إذا قرب وقت الصلاة يتشوق إليها ويحنُّ لها، وينتظر وقتها بفارغ الصبر، حتى إذا حان وقت الصلاة قال لمؤذنه: قم - يا بلال - فأرحنا بالصلاة[1].

● وما أعظم الفرق بين من يقول: أرحنا بها، ومن يقول: أرحنا منها؛ إنها صلاة الحب، لا مجرد صلاة الأمر، إنه كان يجد فيها نفسه، يجد فيها غذاء قلبه، وانشراح صدره وقرة عينه، وقد قال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2].

كان يصلي الصلوات الخمس في ميقاتها.. في جماعتها، بخشوعها، ركوعها، سجودها، وإسباغ وضوئها، وما كان يكتفي بها، بل كان له صلوات من الليل، يَصُفُّ قدميه مصليًا لله عز وجل، ويناجيه فيقول: «اللهم، لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيُّوم السماوات والأرض، لك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه، وأحمد في مسنده: (٥/ ٣٦٤، ٣٧١).

(٢) وهذا جزء من حديث رواه النسائي والحاكم عن طريق آخر، وصححه ووافقه

الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت. وبك آمنت، وعليك توكلت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وأخرت، وما أسررت وأعلنت، أنت إلهى، لا إله إلا أنت»[1].

• هذا هو النبى العظيم ما شغلته متاعب الحياة ولا متاعب الدعوة، وما شغلته حياته الخاصة، وله تسع نسوة لهن مطالب، ولهن حاجات، ومسلمون لهم حاجات ومطالب، وعليه توجيههم وهدايتهم، وهناك جبهات تقف له بالمرصاد، تريد أن تقتلع جذوره، وأن تهدم دعوته من أساسها: الجبهة الوثنية، الجبهة اليهودية، الجبهة النصرانية، البيزنطينية، الجبهة المجوسية المتربصة، والطابور الخامس من المنافقين متاعب الحياة، متاعب الدعوة وهمومها، كل هذه الأعباء ما كانت لتشغله أن يقف بالليل مع ربه، يقف ويطيل الوقوف حتى تتورم قدماه.

● حكى عنه حذيفة رضي الله عنه: «صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلى بها فى ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلاً إذا قرأ بآية فيها تسبيح يسبح، وإذا مر سؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، فقلت: لعله يركع، ثم مضى يصلى بها فى ركعة، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم ركع، فجعل يقول: سبحان ربى العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمد، ربنا لك

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

الحمد، ثم قام طويلاً، فكان سجوده قريبًا من قيامه»(١).

إنها صلاة يشعر فيها بحلاوة العبادة

● «كان النبى ﷺ يقـوم من الليل حتى تفطر قـدماه – من طول القيام – فقالت له زوجته عائشة: لِمَ تصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(٢).

أى أن هذه المغفرة تجعلنى أزداد فى الإقبال على الله شكرًا لنعمته، ووفاء بحقه وقيامًا بحبه.. هكذا كان ﷺ وهكذا كانت صلاته، صلاة الخشية.. صلاة الحب.

أما صيامه: (فكان يصوم رمضان، هذا الشهر الكريم، الذى كان يعتبره موسمًا لطاعة الله والإقبال عليه، فإذا جاء رمضان كان مع جبريل يدارسه القرآن، وكان إذا دخل عليه العشرة الأواخر، شد مئذره، أحيا ليله، أيقظ أهله)(٣).

● روت عنه أم سلمة أنه استيقظ ليلة فقال: سبحان الله! ما أنزل من الفتن، ماذا أنزل من الخزائن، من يوقظ صواحب الحجرات، يعنى نسائه.

– يا رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة(٤).

---

(١) رواه مسلم «رياض الصالحين» باب فضل قيام الليل.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الستة إلا الترمذى عن عائشة.

(٤) رواه البخارى فى كتاب التهجد: (١١٢٦).

هكذا كان يصوم ويقوم، ولم يكن يكتفى بصيام رمضان، كما لم يكن يكتفى بالصلوات الخمس، وكان يصوم الأيام البيض من كل شهر: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر.

● عن جرير عن النبى ﷺ قال: «صيام ثلاثة وأربعة وخمسة عشر»[1].

● وكان يصوم الإثنين والخميس ولما سئل فى ذلك؛ قال: «تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس؛ فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم[2].

● أما فى غضبه فى الله فعلينا أن نقتدى به فى رضاه وفى غضبه، فما كان يغضب لنفسه قط (فهو لم يغضب حين كان يقسم الغنائم فجاءه أعرابى، وقال: يا محمد، أعطنى من هذا المال؛ فهو ليس مالك ولا مال أبيك. فأعطاه ﷺ حتى أرضاه).

ولكنه غضب ﷺ أشد الغضب، عندما جاءه بعض أصحابه «أسامة بن زيد».

قال عروة بن الزبير: إن امرأة سرقت فى عهد رسول الله ﷺ فى غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها، تلوَّن وجه رسول الله ﷺ فلما كان العشى قام رسول الله خطيبًا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد..

(١) رواه النسائى بإسناد جيد والبيهقى.

(٢) رواه الترمذى عن حديث أبى هريرة، وقال: حديث حسن غريب، ورواه النسائى بنحوه فى حديث عن أسامة بن زيد (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٣٢٠، ٣٢١، الحديث ٥٤١).

فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها. فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتينى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[1].

لم يغضب ﷺ حين سلَّط عليه الظالمون سفهاءهم، فأخذوا يقذفونه بالأحجار حتى سالت دماؤه، وكان مما قاله بشأنهم: «اللهم اهد قومى؛ فإنهم لا يعلمون»[2].

● ولكنه غضب ﷺ أشد الغضب عندما أحاطت جيوش الأحزاب بالمدينة المنورة، وشُغل هو وأصحابه بالدفاع عنها، حتى كادت الشمس أن تغرب قبل أن يؤدوا صلاة العصر، فقال ﷺ: «اللهم، املأ قبورهم وبيوتهم نارًا، فقد شغلونا عن صلاة العصر»[3].

وكذلك نقتدى به فى ثباته على دعوته، وفى حرصه على نشرها، وفى غيرته عليها، وفى حبه إياها. فقد تعرض ﷺ لألوان من الترغيب والترهيب ولأنواع من الأذى والاضطهاد، ولصنوف من المساومة والمقاطعة من أعدائه، ولكنه ﷺ ظل ثابتًا على مبدئه، وعندما قال له عمه أبو طالب: يابن أخى، دع القوم وما يعبدون. رد ﷺ على عمه أبى طالب بقوله: يا عماه، والله لو وضعوا الشمس فى

(١) البخارى: المغازى: (رقم ٤٣٠٤).

(٢) أخرج القصة ابن إسحاق: (١/ ٢٦٠ - ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرطبى مرسلاً.

(٣) البخارى: كتاب المغازى، باب: «غزوة الخندق» رقم: ٤١١١.

يمينى، والقمر فى شمالى، على أن أتركـهذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك فيه[١].

وهكذا ضرب ﷺ أروع الأمثال فى ثباته على دعوته، وفى دفاعه عنها، وفى حبه إياها، وفى بذله أسمى الدرجات فى الدفاع عنها.

● كذلك نقتدى به فى حبه أصحابَهُ، وفى حرصه على خير أمته، وكان ﷺ المثل الأعلى فى حبه أصحابَهُ وفى نشر المحبة والمودة والإخاء الصادق، والتعاون على البر والتقوى بين أتباعه، وكان من توجيهه أنه قال لأصحابه: «لا تبلغونى عن أصحابى شيئًا أكرهه؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

إننا إذا اقتدينا بسيدنا رسول الله ﷺ فى أقواله وفى أعماله وفى عبادته وفى أخلاقه، كنا قد احتفلنا بذكرى المولد الشريف احتفالاً ننال به الرضا من خالقنا، والشفاعة من نبينا لذلك قال ﷺ: «اللهم، لا تجعل قبرى بعدى وثنًا يُعبد»[٢].

يوم البناء «يوم الزواج من خديجة»

وخديجة مثل طيّب للمرأة التى تكمل حياة الرجل العظيم. إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غبنًا من الواقع الذى يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا فى سبيل الخير الذى يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى أن يتعهد حياتهم

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير: (٣/ ٦٨، ٦٩).

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد: (٢/ ٢٤٦) وابن سعد فى «الطبقات» ج ٢ ق ٢ ص ٣٦ من حديث أبى هريرة بسند صحيح.

الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها فى حياة محمد ﷺ أثر كبير.

● قال ابن الأثير: «كانت - خديجة - امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه؛ ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره، ومعه غلامها ميسرة».

فقبل ﷺ وسافر معه غلامها ميسرة، وقدم الشام وباع محمد ﷺ سلعته التى خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة، وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها. وقد حصل ﷺ فى هذه الرحلة على فوائد عظيمة، بالإضافة إلى الأجر الذى ناله، إذ مر بالمدينة التى هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التى فتحها، ونشر فيها دينه، كما كانت سببًا في زواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته، وصدقه وكريم أخلاقه، ورأت خديجة فى مالها من البركة ما لم تره قبل هذا، وأخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالتها المنشودة، فتحدثت بما فى نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة مرحبة بذلك، فلم يبطئ في إعلان قبوله، ثم كلم أعمامه فى ذلك، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلى عم خديجة عمرو بن أسد - إذ أن أباها مات فى حرب الفجار - وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليها الصداق عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ

ولم يتزوج غيرها حتى ماتت[١].

وكان محمد فى الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة، وكانت هى قد ناهزت الأربعين، وظل هذا الزواج قائمًا حتى ماتت خديجة عن خمسة وستين عامًا.

كانت طوالها محل الكرامة والاعتزاز، وقد أنجبت لرسول الله ﷺ أولاده جميعًا، ما عدا إبراهيم؛ ولدت له أولاً: «القاسم»، وبه كان يُكنى بعد النبوة، ثم: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، «وعبد الله»، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر.

مات القاسم بعد أن بلغ سنًا تمكنه من ركوب الدابة والسير، وعلى النجيبة، ومات عبد الله وهو طفل، وماتت سائر بناته فى حياته، إلا فاطمة فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به [٢].

● دروس وعبر:

١ - إن الأمانة والصدق صفات التاجر الناجح.

● الدليل: «عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[٣].

● وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة»[٤].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأبى فارس ص ١٢٢.

(٢) «رسالة الأنبياء»: (٣/ ٢٨).

(٣) رواه الترمذى. (٤) رواه ابن ماجة.

● وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كذب وكتما محقت بركة بيعهما[(١)].

٢ - يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبى ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها عدم اهتمام النبى ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية الشباب، لطمع فيمن هى أقل منه سنًا، أو بمن لا تفوقه فى العمر، وإنما رغب النبى ﷺ فيها؛ لشرفها ومكانتها فى قومها؛ فقد كانت تُلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

٣ - وفى زواج النبى ﷺ من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه وأقلامهم، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين الذين ظنوا أنهم وجدوا فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوروا النبى ﷺ فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذَّاته وشهواته، فنجد أن النبى ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره فى بيئة جاهلية عفيف النفس، دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شىء مما حوله، وإن من حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل فى سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا، وقد ناهز النبى (عليه الصلاة والسلام) الخمسين من

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

العمر، دون أن يفكر خلالها في الزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية، ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الضَّرَّة كي يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أَمَة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

وأما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة وسببًا، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه[1].

٤ – وفاء النبي للسيدة خديجة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: هذه خديجة قد أتتك، معها إناء فيه إدام – أو طعام أو شراب – فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، (عز وجل) ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب – يعني من لؤلؤ أو ذهب – لا صخب فيه ولا نصب»[2].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها، ولكن النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا إلا

---

(١) «فقه السيرة» للبوطي ص ٥٣، ٥٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب الرضاع رقم (١٤٦٧، ١٠٩٠).

خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد»[١]، وأظهر البشاشة والسرور لأخت خديجة، لما استأذنت عليه لتذكره خديجة، «فعن عائشة ﵂ قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة - لتشابه صوتهما - فارتاح لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد» فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين «لا أسنان لها هلكت فى الدهر فأبدلك الله خيرًا منها»[٢].

وأظهر الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة وبيَّن أن حفظ العهد من الإيمان[٣].

يــوم الوحـــى

نزل الوحى على سيد الخلق أجمعين ﷺ وكان النبى ﷺ قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو فى غار حراء بنفسه، ويتفكر فى هذا الكون وخالقه، وكان تعبده فى الغار يستغرق ليالى عديدة، حتى إذا نفذ الزاد عاد إلى بيته فيتزود لليال أخرى[٤].

وفى نهار يوم الإثنين من شهر رمضان، جاءه جبريل بغتة لأول

---

(١) البخارى، باب مناقب الأنصار: (٧/ ١٣٢ - ح ٣٨١٨).

(٢) مسلم، كتاب: «فضائل الصحابة» (ص ١٨٨٩ - رقم ٢٤٣٧).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للتحميدى (١/ ٧١).

(٤) انظر: صحيح السيرة للعلى (ص ٦٧).

مرة، داخل غار حراء[1].

فعن عائشة قالت: أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال «ما أنا بقارئ» قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى، فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١).

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: «زملونى! زملونى»، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع! فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسى» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزلك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ (أى: تنفق على الضعيف، واليتيم، والعيال - والكل أصله: الثقل والإعياء)، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق (الكوارث والحوادث)، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمرى (١/ ١٢٥)، وقد نقل البخارى فى صحيحه حديث عائشة ﵂ والبخارى «أبو الصحاح، وكتب السنن، والمسانيد وكتب التاريخ».

عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة يابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى؛ فقال له ورقة: هذا الناموس - هو جبريل عليه السلام - صاحب سر الخير، هذا الناموس الذى نزل على موسى. يا ليتنى أكون فيها جزعًا - أى: شابًا قويًا - ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مُخرجيَّ هم؟!» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤذرًا (قويًا بالغًا).

ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى (فتر الوحى: أى تأخر نزوله)[1].

عندما نتأمل فى حديث السيدة عائشة يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمة تتعلق بسيرة الحبيب المصطفى ﷺ ومن أهمها:

أولاً - الرؤيا الصالحة:

ففى رؤية عائشة أن أول ما بُدئ به محمد ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة، وقد قال العلماء: وكانت مدة الرؤيا الصالحة ستة أشهر. ذكره البيهقى. ولم ينزل عليه شىء من القرآن فى النوم، بل نزل كله يقظة.

---

(١) البخارى، كتاب بدء الوحى، رقم: ٣.

والرؤيا الصالحة من البشرى فى الحياة الدنيا، فقد ورد عن النبى ﷺ قوله: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة رآها المسلم أو تُرى له»[١].

● وفى قول السيدة عائشة (فيتحنث الليالى ذوات العدد) يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالى لم تصل إلى نهاية القلة ولا إلى نهاية الكثرة، وما زال هذا الهدى الذى كان عليه النبى ﷺ قبل البعثة من التوسيط والاقتصاد فى الأعمال، شعارًا للملة الإسلامية، ورمزًا للهدى النبوى الكريم، بعد أن أرسله الله رحمة للعالمين[٢].

● وقد أخذ بعض أهل السلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذكر، والعبادة، فى مرحلة من مراحل السلوك؛ لتنوير قلبه، وإزالة ظلمته وإخراجه من غفلته وشهوته وهفوته. ومن سنن النبى ﷺ سنة الاعتكاف فى رمضان[٣]. وهو مهم لكل مسلم سواء كان حاكمًا أو عالمًا أو قائدًا أو تاجرًا لتنقية الشوائب التى تعلق بالنفوس والقلوب، ويصحح واقعه على ضوء الكتاب والسنة ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب[٤].

---

(١) ابن ماجه، كتاب تعبير الرؤيا (رقم: ٣٨٩٩) حسن الإسناد، وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجة (٣١٦١/ ٣٩٦).

(٢) المختار من كنوز السنة ص ١٩، ص ٢، ١٩٧٨، دار الأنصار، القاهرة.

(٣) (انظر: الأساس فى السنة وفقهها «السيرة النبوية» سعيد حوى: (١٩٥١).

(٤) انظر: «فقه السيرة» للغضبان.

ويمكن لأهل فقه الدعوة أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت؛ للمراجعة الشاملة والتوبة والتأمل فى واقع الدعوة، وما هى عليه من قوة أو ضعف، واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

(ثم حبب إليه الخلاء) وقبيل النبوة حبب إلى نفس النبى ﷺ الخلوة ليتفرغ قلبه وعقله، وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبدًا، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغًا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود[1].

● الشدة التى تعرض لها النبى ﷺ ووصف ظاهرة الوحى:

لقد قام جبريل بضغط النبى ﷺ مرارًا حتى أجهده وأتعبه، وبقى رسول الله ﷺ يلقى من الوحى شدة وتعبًا وثقلاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل: ٥).

كان فى ذلك حكمة وعظمة، لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمة الاهتمام به وشدته، وبيانًا للأمة أن دينها الذى تنعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

* * *

(١) انظر: «محمد رسول الله»، محمد صادق عرجون (١/ ٢٥٤).

«يوم الجهر بالحق» بالدعوة

بعد الإعداد العظيم الذى قام به النبى ﷺ لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية وتعبدية وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة، بنزول قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فجمع قبيلته ﷺ وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوفهم من العذاب الشديد إن هم عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبيَّن لهم مسئولية كل إنسان عن نفسه[1].

مجىء جبريل للمرة الثانية، قال جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى، فقال لى فى حديثه: فبينا أنا أمشى، سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسى، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالسًا على كرسى بين السماء والأرض، ففزعت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلى، فقلت: زملونى - زملونى، فدثرونى... فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر: ١ - ٥).

كانت هذه الأوامر المتتابعة القاطعة إيذانًا للرسول بأن الماضى قد انتهى بمنامه وهدوئه وسلامه؛ وأنه أمام عمل جديد يستدعى اليقظة والتشمير والإنذار والإعزار فليحمل الرسالة وليوجه الناس،

(١) رسالة الأنبياء من أحمد (٣/ ٤٦).

وليأنس بالوحى، وليقوى على عنائه، فإنه مصدر رسالته، ومدد دعوته.

● عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى ﷺ على الصفا، فجعل ينادى: يا بنى فهر، يا بنى عدى» لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقىّ؟» قال: «فإننى نذير لكم بين يدى عذاب شديد».

فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١).

● وفى رواية: ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: (أنقذوا أنفسكم من النار» ثم قال: «يا فاطمة، أنقذى نفسك من النار؛ فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها»[٢].

كانت النتيجة لهذا الصدع هى الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر والمدروس، وقد اشتد الصراع بين النبى ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس فى مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع فى كل مكان، وكان هذا فى حد ذاته

---

(١) البخارى: (٨/ ٥٤٩، ٥٥٥)، مسلم: (١/ ٩٨).

(٢) مسلم «كتاب الإيمان»: (٣٤٨١)، (١٢٠٤).

مكسبًا عظيمًا للدعوة، وكانت الوسيلة الإعلامية فى ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة أو سمع القاصى والدانى بنبوة الرسول ﷺ وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس فى المجالس ونوادى القبائل، وفى بيوت الناس[1].

● إلام يدعو الناس؟

أولاً: الوحدانية المطلقة: فالإنسان ليس عبدًا لكائن فى الأرض أو عنصر فى السماء؛ لأن كل شىء فى السماء والأرض عبد لله، يعنو لجلاله ويذل فى ساحته، ويخضع لحكمه، وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء ومن حق كل امرئ أن يهرع إلى ربه رأسًا غير متصحب معه خلقًا آخر كبر أو حقد. وحق على كل امرئ أن ينكر من أقاموا أنفسهم أو أقامهم غيرهم ذلفى، وإن ينزل بهم إلى مكانهم المحدود إن كانوا بشرًا أو حجارة أو ما سوى ذلك.

ويجب أن يتبنى جميع الصلات الفردية والجماعية على أساس تفرد الله فى ملكوته بهذه الوحدانية التامة؛ ونتيجة هذه العقيدة أن الحجارة التى يعبدها العرب - أصبحت لا تزيد عن الحجارة التى تبنى بها البيوت، أو ترصف بها الطرق.

ثانيًا: اعتراضهم على الوحدانية: لم يكن اعتراضهم أنهم ينكرون أن الله خلقهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

(١) انظر: رسالة الأنبياء: (٣/ ٤٨، ٤٩).

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان: ٢٥)، ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر: ٣).

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٩).

ثالثًا: الدار الآخرة: فهناك يوم لا شك فى قدومه، يلقى الناس فيه ربهم، فيحاسبهم حسابًا دقيقًا على حياتهم الأولى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ﴾ (الزلزلة: ٧).

فإما نعيم ضاحك يمرح فيه الأخيار ويستريحون، وإما جحيم مشئومة، يشقى فيها الأشرار ويكبتون.

رابعًا: تزكية النفس: وذلك بلزوم عبادات معينة شرعها الله عز وجل، وترك أمور أخرى عزرًا من مغبتها: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٥١).

خامسًا: حفظ كيان الجماعة المسلمة: باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون، وذلك يقتضى نصر المظلوم، وإعطاء المحروم، وتقوية الضعيف.

وفى سورة المدثر – وهى أول سورة أمر الرسول فيها بالبلاغ – تقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ

(١) السيرة النبوية: ١٤٥.

أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ (المدثر: ٣٨).

فما تنفعهم شفاعة الشافعين.

وكان أبو بكر لا يرى مستضعفًا يعذب من المسلمين إلا بذل جهده وماله فى سبيل فَكِّ إسَارِهِ وإنقاذه مما به؛ وذلك حق الفرد على الجماعة.

يـوم التفـاوض

ظن المشركون أن بطشهم بالمستضعفين، ونيلهم من غيرهم سوف يصرف الناس عن الاستجابة لداعى الله، وظنوا أن وسائل السخرية والتهكم التى صبحوا إليها ستهد قوى المسلمين المعنوية؛ فيتوارون خجلاً من دينهم، ويعودون كما كانوا إلى دين آبائهم، غير أن ظنونهم سقطت جميعًا، فإن أحدًا من المسلمين لم يرتد عن الحق الذى شرفه الله به، بل كان المسلمون يتزايدون! ولم تُفلح طرق الاستهزاء فى الصد عن سبيل الله أو تشويه معالمها إنما زادت شعور المسلمين بما تزحزح به الوثنية من معرات ومخاز تستحق الفضحية والاستئصال، ما عسى أن تصنع سخرية الجهول بالعالم؟!

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (هود: ٣٨).

رأت قريش أن تجرب أسلوبًا آخر، تجمع فيه بين الترغيب والترهيب، فلترسل إلى محمد ﷺ تعرض عليه من الدنيا ما يشاء، ولترسل إلى عمه الذى يحميه، تحذره مغبة هذا التأييد، حتى يكلم

هو الآخر محمدًا أن يسكت فلا يجر المتاعب على كاهله ووليه.

اجتمع المشركون يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه، فقالوا: ما نعلم أحدًا عند عتبة ابن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة (وهو رجل رزين هادئ) فذهب إلى رسول الله ﷺ يقول: يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من المكان فى النسب، وقد أتيتَ قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا لعلك تعمل بعضها: إن كنت إنما تريد لهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدْنَاك علينا فلا يقطع أمر دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملَّكْنَاك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ.

فقال رسول الله ﷺ: (فرغت؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ..﴾ إلى أن بلغ: ﴿.. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت: ١: ١٣).

فقال عتبة: حسبك أمَا عندك غير هذا؟! قال: لا، فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك، قال: ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم[١].

● فى رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: «ما وراءك يا

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير: (٣/ ٦٨، ٦٩).

أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش، أطيعونى، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم. قالوا أسحرك والله يا أبا الوليد - بلسانه - قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

تخير رسول الله هذه الآيات من الوحى المبارك ليعرف محدثه حقيقة الرسالة والرسول: إن محمدًا يحمل كتابًا من الخالق إلى خلقه يهديهم من خلال وينقذهم من خبال.

● دروس وعبر:

(١) إن فى قول الرسول ذلك القول لعتبة بن ربيعة، وفى رفضه ما عرضه عليه قريش من مال وملك - دليلاً على صدقه فى دعوى الرسالة، وحرصه على هداية الناس. وكذلك ينبغى أن يكون الداعية مصممًا على الاستمرار فى دعوته مهما تألب عليه المبطلون، معرضًا عن إغراء المبطلين بالجاه والمناصب؛ فالمتاعب فى سبيل الحق لدى المؤمنين راحة لضمائرهم وقلوبهم، ورضى الله وجنته أعز وأعلى عندهم من كل مناصب الدنيا وجاهها وأموالها.

(٢) إن المبطلين لا يستسلمون أمام أهل الحق بسهولة ويسر، فهم كلما أحققت لهم وسيلة من وسائل المقاومة والقضاء على دعوة الحق،

(١) السيرة لابن هشام (١/ ٢٩٤).

ابتكروا وسائل أخرى، وهكذا حتى ينتصر الحق انتصاره النهائى، ويلفظ الباطل أنفاسه الأخيرة.

(٣) خطورة المال والجاه والنساء على الدعاة، فكم من الدعاة سقط على الطريق تحت بريق المال وكم عرضت الآلآف من الأموال على الدعاة ليكفوا عن دعواتهم، والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنبى، وخطورة الجاه واضحة؛ لأن الشيطان فى هذا المجال يزين ويغوى لطرق أكبر، وأشدُّ مكرًا وإعجازًا. والداعية الربانى هو الذى يتأسى برسول الله ﷺ فى حركاته وأقواله وأفعاله، ولا ينسى الهدف الذى عاش له ويموت من أجله.

وأما النساء فقد قال ﷺ: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»[1].

سواء كانت زوجة تثبط الهمة عن الدعوة والجهاد، أو تسليط بعض الفاجرات عليه ليسقطنه فى شباكهن، فإنها فتنة عظيمة فى الدين، فها هى ذى قريش تعرض على رسول الله نساءها يختار عشرًا منهن، أجملهن وأحسنهن.

إن خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشد من خطر السيف المصلت على الرقاب.

فقل للدعاة أن يقتدوا بسيد الخلق، ويتذكروا دائمًا قول يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥/ ١٣٨)، ورقمه (٥٤٧٣).

تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يوسف: ٣٣، ٣٤).

يوم محنة الطائف

ذهب رسول ﷺ إلى الطائف، حيث تقطن ثقيف، وهى تبعد عن مكة نحو خمسين ميلاً، سارها محمد ﷺ على قدميه جيئة وذهوبًا، وذلك لما اشتد على الرسول كيد قريش وأذاها بعد وفاة عمه، وذلك فى آخر السنة العاشرة من المبعث [١].

وقد كان أبو طالب «يحوط النبى ﷺ ويغضب له» [٢] وينصره[٣] وأما خديجة فقد توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين فى العام نفسه لوفاة أبى طالب[٤]، وبموت أبى طالب، الذى أعقبه موت خديجة، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ.

كان أبو طالب السند الخارجى، الذى يدفع عنه القوم، وكانت خديجة السند الداخلى الذى يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله ﷺ ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه فى حياة أبى طالب[٥].

---

(١) فتح البارى ٧ (١٩٤١).

(٢) صحيح البخارى (فتح البارى ٧/ ١٩٣ ورقمه: ٣٨٨٠).

(٣) صحيح مسلم: (١/ ١٩٥) ورقمه (٣٥٨ - ٤٠٩).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة للعمرى: (١/ ١٨٥).

(٥) انظر محنة المسلمين فى العهد المكى ص ٣٤.

● روى أن رسول الله ﷺ قال: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات «أبو طالب»[(١)].

● روى أن رسول الله ﷺ قال: «ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات (أبو طالب) وذلك أنهم تجرءوا عليه، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه [(٢)].

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس. فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيضعه بين كتفى محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض. وأنا قائم أنظر، لو كانت لى منعة لطرحته عنه والنبى ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت - وهى جويرية - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.

وكان إذا دعا، دعا ثلاث مرات، وإذا سأل سأل ثلاثًا. ثم قال: «اللهم، عليك بقريش» ثلاثًا، فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته - ثم قال: «اللهم، عليك بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى

---

(١) أخرجه ابن إسحاق: (١/ ٢٥٨) بسند صحيح عن عروة بن الزبير.

(٢) روى ابن إسحاق: (١/ ٥٨) بسند صحيح عن عروة.

معيط»، وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذى بعث محمدًا بالحق، لقد رأيت الذين سمى صرعى «يوم بدر» ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر»[1].

● لقد مضت مكة فى طريق الكفر حتى أوغلت فيه وبلغت نهايته، فهى تستمر فى تلويث الساجدين بالأقذار، وتتمايل ضحكًا من منظر الأنجاس، وهى تسيل على كتفى المصلى. لم يبقَ فى هذه القلوب مكان لذرة من الخير.

● فما يجرأ فى قلب الرجل أن يرى نفسه فى وضع تدفع عنه ابنته الأذى، وتشعر بالعجز وقلة الناصر، وقد كظم محمد ﷺ على ألمه، وتحمل فى ذات الله ما لقى؛ إلا أنه أخذ يفكر فى التوجه برسالته إلى قرية أخرى، علها تكون أحسن قبولاً وأقرب استجابة، فاستصحب معه «زيد بن حارثة»، وولى وجهه شطر «ثقيف» يتلمس نصرتها؛ ولكنهم ردوه ردًا غير جميل، وأغروا به صبيانهم فقذفوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين، ثم التجأ إلى بستان من بساتين الطائف، وتوجه إلى الله بهذا الدعاء: «اللهم، إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس! أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يك بك غضب علىَّ فلا أبالى، غير أن

(١) صحيح أخرجه البخارى: (١/ ٢٨٧ - ٢٨٠) ٤٧١ ومسلم: (٥١/ ١٨٠).
سمى السابع عمارة بن الوليد البخارى وأحمد، وراجع فتح البارى.

عافيتك هى أوسع لى! أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علىَّ غضبك، أو أن ينزل بى سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك!!».

وتحركت عاطفة القرابة فى قلوب بنى ربيعة، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا، يدعى «عدَّاسًا» وقالا له: خذ قطفًا من العنب، واذهب به إلى الرجل، فلما وضعه بين يدى رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً: باسم الله، ثم أكل[1].

وقوله: «اللهم، إليك أشكو... إلخ الدعاء».

ذكرهما من دون سند، وكذلك رواه ابن جرير: (١/ ٨٠، ٨١) من طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبرانى فى الكبير، من حديث عبد الله بن جعفر مختصرًا. وفيه الدعاء المذكور بنحوه.

وقال الهيثمى (٦/ ٣٥): (وفيه ابن إسحاق، فالحديث ضعيف وذهب د. العمرى إلى تضعيف الحديث فى كتابه السيرة النبوية الصحيحة: (١/ ١٨٦)، وذهب إبراهيم العلى إلى صحته).

وبيَّن أن الحديث يقويه، ولذلك اعتبره صحيحًا، وذكره فى كتابه «صحيح السيرة النبوية ص (١٣٦).

عاد رسول الله ﷺ من الطائف دون أن تستجيب ثقيف لدعوته،

---

(١) أخرج القصة ابن أسامة: (١/ ٢٦٠ - ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظى مرسلاً.

اللهم إلا ما كان من إسلام «عدَّاس» غلام عتبة وشيبة (بنى ربيعة)، وكان غلامًا نصرانيًا. وقفل الرسول عائدًا إلى مكة إلى البلد الذى لفظ خيره أهله، فهاجر إلى الحبشة. وأكره الباقى على معاناة العذاب الواصب، أو الفرار إلى شِغَاف الجبال.

● وقال زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم، وقد أخرجوك؟ فقال رسول الله ﷺ يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا... فبعث إلى «المطعم ابن عدس» نعم عليه أن يجيره ليبلغ رسالة ربه، فقبل المطعم[1].

● الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تزيل كثيرًا من الصعاب عن طريق زوجها الداعية إذا شاركته فى همومه وآلامه، بذلك تخفف عنه هذه الهموم، وتبث فى نفسه الاستمرار والثبات، فيكون لها أثر فى نجاح الدعوة وانتصارها، ولذلك ظل الرسول ﷺ طيلة حياته يذكر فضل خديجة، ويترحم عليها، ويبر صديقتها، حتى كانت عائشة تغار منها - وهى متوفاة لكثير ما كانت تسمع من ثناء النبى ﷺ عليها، فقد روى البخارى عنها أنها قالت: «ما غرت على أحد من نساء النبى ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، فربما قلت له بأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد».

---

(١) ابن كثير ٢ (٨٢ - ٨٣) وابن جرير: (٢/ ٨٢ - ٨٣) من دون سند.

يوم المهاجر الأمين «يوم الهجرة»

إن نجاح الإسلام فى تأسيس وطن له، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى يثرب، فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا عامًا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن.

● علمت قريش بإسلام فريق من أهل يثرب فاشتد أذاها للمؤمنين بمكة، فأمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا مستخفين إلا عمر رضي الله عنه فإنه أعلم مشركى قريش بهجرته، وقال لهم: من أراد أن تثكله أمه فليلحق بى غدًا ببطن هذا الوادى، فلم يخرج له أحد.

● ولما أيقنت قريش أن المسلمين قد أصبحوا فى عزة ومنعة، قرَّ رأيهم فى دار الندوة على التفكير فى القضاء على الرسول نفسه، فقر رأيهم على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى جلدًا فيقتلونه جميعًا فيتفرق دمه فى القبائل، ولا يقدر بنو مناف على حربهم جميعًا، فيرضوا بالدية، وهكذا اجتمع الفتيان الموكلون بقتل الرسول ﷺ على بابه ليلة الهجرة ينتظرون خروجه ليقتلوه.

● لم ينم الرسول ﷺ تلك الليلة على فراشه، وإنما طلب من علىّ رضي الله عنه أن ينام مكانه، وأمره إذا أصبح أن يرد الودائع التى أودعها كفار قريش عنده إلى أصحابها، وغادر الرسول ﷺ بيته دون أن يشاهده

الموكلون بقتله، وذهب إلى بيت أبى بكر، وكان قد هيأ من قبل راحلتين له وللرسول ﷺ فعزما على الخروج، واستأجر أبو بكر عبد الله بن أريقط الديلمى، وكان مشركًا ليدلهما على طريق المدينة، على أن يتجنب الطريقة المعروفة إلى طريق أخرى لا يتصدى إليها كفار قريش.

● خرج رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول لسنة ثلاث وخمسين من مولده (عليه الصلاة والسلام)، ولم يعلم بأمر هجرته إلا على رضي الله عنه وآل أبى بكر رضي الله عنه، وعلمت عائشة وأسماء بنتا أبى بكر فى تهيئة الزاد لهما، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها - ما يشد به الوسط - فربطت به على فم الجراب - وعاء الطعام - فسميت لذلك: ذات النطاقين، واتجها مع دليلهما عن طريق اليمن حتى وصلا إلى (غار ثور) فمكثا فيه ثلاث ليال.

يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر، وهو غلام شاب ثَقِفٌ «حاذق» لَقِنٌ «سريع الفهم» فيخرج من عندهما بالسحر، ويصبح مع قريش بمكة كأنه كان نائمًا فيها، فلا يسمع من قريش أمرًا يبيتونه من المكروه لهما إلا وعاه حتى يأتيهما فى المساء بخبره[1].

● قامت قيامة قريش لنجاة الرسول ﷺ من القتل وخرجوا يطلبونه فى طريق مكة المعتاد، فلم يجدوه واتجهوا إلى طريق اليمن ووقفوا عند فم (غار ثور) يقول بعضهم: لعله وصاحبه فى هذا الغار! فيجبه الآخرون: ألا ترى إلى فم الغار كيف ينسج عليه العنكبوت

---

(١) خاتم النبيين لأبى زهرة: (١/ ١٦٥٩)، السيرة النبوية، لابن كثير: (٢/ ٢٣٤).

خيوطها، وكيف تعشش فيه الطيور، فما يدل على أنه لم يدخل الغار أحد من أمر، وأبو بكر رضي الله عنه يرى أقدامهم وهم واقفون على فم الغار، فيرتعد خوفًا على حياة الرسول ﷺ ويقول له: والله يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدميه لرانا، فيطمئنه الرسول ﷺ يقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]، وذكر ذلك ابن كثير من حديث ابن عباس فى نارين (٢/٢٣٩)، وهذا إسناد حسن، باب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه الكريمة.

فعن أبى بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك - يا أبا بكر - باثنين الله ثالثهما؟».

أرسلت قريش فى القبائل تطمع كل من عثر على الرسول وصاحبه، أو قتله أو أسره، فى مبلغ ضخم من المال يغرى الطامعين، فانتدب لذلك سراقة بن جعشم، وأخذ على نفسه أن يتفقدهما ليظفر وحده بالجائزة.

● بعد أن انقطع طلب رسول الله ﷺ وصاحبه، خرجا من الغار مع دليلهما، وأخذا طريق السواحل ساحل البحر الأحمر، وقطعا مسافة بعيدة، فأدركهما سراقة، فلما اقترب منهما ساخت قوائم فرسه فى الرمل، فلم تقدر على السير، وحاول ثلاث مرات أن يحملها على السير جهة الرسول ﷺ فتأبى!! عندئذ أيقن:

---

(١) البخارى: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين رقم: (٣٩٥٣).

- أنه أمام رسول كريم فطلب من الرسول ﷺ أن يعده بشيء إن نصره، فوعده بسواري كسرى يلبسهما، ثم عاد سراقة إلى مكة، فتظاهر بأنه لم يعثر على أحد، ووصل الرسول ﷺ وصاحبه المدينة فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول، وبعد أن طال انتظار أصحابه له، وهم يخرجون كل صباح إلى مشارف المدينة فلا يرجعون إلا حين تحمى الشمس وقت الظهر - رأوه ففرحوا فرحًا عظيمًا.

● كان الرسول ﷺ وهو فى طريقه إلى المدينة قد وصل إلى «قباء»، وهى قرية جنوب المدينة على بعد ميلين منها، فأسس فيها أول مسجد بنى فى الإسلام، وأقام فيها أربعة أيام، ثم سار صباح الجمعة إلى المدينة، فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف، فبنى مسجدًا هناك، وأقام أول جمعة فى الإسلام، وأول خطبة خطبها فى الإسلام، ثم سار إلى المدينة، فلما وصل إليها، كان أول عمل عمله أن اختار المكان الذى يركن فيه ناقته ليكون مسجدًا له، وكان المكان لغلامين يتيمين من الأنصار، فساومهما فى ثمنه، فقالا: بل نهبُه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، ثم ندب المسلمين إلى الاشتراك فى بناء المسجد، فأسرعوا إلى ذلك، وكان ﷺ ينقل معهم اللَّبِن، حتى تم بناء المسجد جدرانه من لبن، وسقفه من جريد النخل، مقامًا على الجذوع.

● ثم كان أن آخى بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل أنصارى أخًا من المهاجرين، فكان الأنصارى يذهب بأخيه المهاجر إلى بيته فيعرض عليه أن يقسم معه كل شيء.

«فـى بيتــه»

ثم كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، ودعا فيه اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وقد ذكر ابن هشام هذا الكتاب بطوله فى سيرته، وهو يتضمن المبادئ التى قامت عليها دولة فى الإسلام.

● **الدروس والعظات:**

(١) **الصراع بين الحق والباطل:** صراع قديم وممتد، وهو سنة إلهية نافذة، قال (عز وجل): ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج: ٤٠).

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة: ٢١).

(٢) **مكر خصوم الدعوة بالداعية:** أمر مستمر متكرر، سواء عن طريق الحبس أو القتل، أو النفى، والإخراج من الأرض، وعلى الداعية أن يلجأ إلى ربه، وأن يثق به، ويتوكل عليه، ويعلم أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

● ومن مكر أهل الباطل استخدام سلاح المال لإغراء النفوس الضعيفة، للقضاء على الدعوة والدعاة، ولذلك رصدوا مائة ناقة لمن

يأتى بأحد المهاجرين حيًا أو ميتًا فتحرك الطامعون ومنهم سراقة قبل إسلامه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦)(١).

● دقة التخطيط، ودقة الأخذ بالأسباب:

١ – جاء إلى بيت الصديق فى وقت شدة الحر – الوقت الذى لا يخرج فيه أحد، بل لم يكن من عادته أن يخرج فيه، ولكن لِمَ؟ لئلا يراه أحد.

٢ – إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق، جاء إلى بيت الصديق متلثمًا؛ لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم(٢).

٣ – أمر أبو بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبت فى الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

٤ – وكان الخروج ليلاً، ومن باب خلفى فى بيت أبى بكر (٣).

٥ – اتخاذ طرق غير مألوفة للقوم.

---

(١) قصة خروج الأنصار، البخارى: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبى (٥/ ٧٧، ٧٨ ورقمه: (٣٩٠٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية قراءة بجوانب الحذر والحماية ص (١٤).

(٣) انظر: معين السيرة ص ٤٧.

● انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة فى شئون الهجرة:

أ - علىّ رضي الله عنه ينام فى الفراش؛ ليخدع القوم، ويسلم الودائع؛ ويلحق بالرسول.

ب - عبد الله بن أبى بكر صاحب المخابرات الصادق؛ وكاشف تحركات العدو.

جـ - أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثًا عن محمد ﷺ ليقتلوه.

د - عامر بن فهيرة الراعى البسيط الذى قدم (اللحم واللبن إلى صاحب الغار، وبدَّد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه.

هكذا أخذ النبى بالأسباب وخطط مع توكله على الله، ولذلك فى الغار عندما أحس أقدام المطاردين تقترب، وعندما بدأ أبو بكر يقلق ويشعر بالوجل كان النبى ﷺ يسكن روعه، ويبدد قلقه، ويقول له: «ما ظنك باثنين - يا أبا بكر - الله ثالثهما».

يـوم بـــدر

بلغ المسلمين تحرك قافلة تجارية كبيرة من الشام، تحمل أموالاً عظيمة [1] لقريش يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين

---

(١) قدرت قيمة البضائع التى تحملها القافلة بحوالى ٥٠ ألف دينار. انظر: موسوعة نضرة النعيم فى مكارم أخلاق الرسول الكريم: (١/ ٢٨٦).

ثلاثين وأربعين رجلاً[١] فأرسل الرسول ﷺ بسبس بن عمرو[٢] لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها»[٣].

وكان خروجه من المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه ﷺ من المدينة لم يكن فى بيته، فقال، وإنما كقصده عير قريش وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفى حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءًا من هذه الأموال الموجودة فى القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليه المشركون ظلمًا وعدوانًا [٤] كلف رسول الله ﷺ عبد الله بن أم مكتوم بالصلاة بالناس فى المدينة، عند خروجه إلى بدر ثم أعاد أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة - وعينه أميرًا عليها[٥].

أرسل النبى اثنين من أصحابه [٦] إلى بدر للتعرف على أخبار

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم ص (١٠٧).

(٢) ورد الاسم فى صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصحفًا إلى بسبسه، وصححه ابن حجر.

(٣) سيرة ابن هشام: (٢/ ٦١) بسند صحيح إلى ابن عباس.

(٤) انظر حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد آل عابد: (١/ ٤٣).

(٥) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٠)، المستدرك للحاكم: (٣/ ٦٣٢).

(٦) هما عدى بن الزغباء، وبسبس بن عمرو، الطبقات لابن سعد: (٢/ ٢٤).

القافلة، فرجعا إليه بخبرها.

وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقو النبى ﷺ فى غزوته هذه إلى بدر، ففى حين جعلهم البخارى «بضعة عشر وثلاثمائة».

يذكر مسلم أنهم «ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً».

فى حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين كانت قوات قريش وأحلافها مجتمعة للحرب والتى بلغ تعدادها ألفا.

معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء النبى ﷺ وأصحابه، فى حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها.

وقبل أن يخوض المعركة، أراد أن يستشير أصحابه ولما بلغ النبى نجاه القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبى ﷺ استشار رسول الله أصحابه فى الأمر؛ فأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول بوجهة نظرهم، وقد صور القرآن موقفهم وأحوال الفئة المؤمنة عمومًا فى قوله تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (الأنفال: ٥).

«وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو»[1].

وكان للمقداد بن الأسود موقف متميز، فقد قال عبد الله بن مسعود: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا؛ لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به؛ أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا. إنا هاهنا قاعدون) ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره[2].

● وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: أشيروا على أيها الناس، وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده؛ ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن ظاهرها، ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة، وقد أدرك الصحابى سعد بن معاذ - وهو حامل لواء الأنصار - مقصد النبى ﷺ من ذلك، فنهض قائلاً: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟! قال ﷺ: أجل، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا؛ إنا لصبر فى الحرب، صدق

(١) انظر موسوعة نضرة النعيم (١/ ٢٨٨).

(٢) البخارى: كتاب المغازى، باب قصة غزوة بدر: (٣/ ٣٩٥٢).

عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله[١].

سر النبى ﷺ من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك، فقال ﷺ «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

كانت كلمات سعد، مشجعة لرسول ﷺ وملهية عشاء الصحابة، فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

ثم سار الرسول ﷺ حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المنذر يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض - يا رسول الله - بالناس حتى تأتى أنى ماء من القوم، أى قريش - فنزله ونغور - نغرب - ما وراءه من الآبار، ثم نبنى عليه حوضًا فنملؤه ثم نقاتل القوم - فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبى ﷺ برأيه، ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو.

فأقامو فيه، ثم أشار ابن معاذ، أن يُبنى للرسول ﷺ عريش وراء صفوف المسلمين، فإن أعزهم الله كان ما أحب، وإلا جلس على ركائبه، ولحق بمن فى المدينة. وقال له سعد: فقد تخلف عنا أقوام يا نبى، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، لو فطنوا أنك تلقى حربًا لما تخلّفوا

(١) ابن هشام: (٢. ٦٣، ٦٤) عن ابن إسحاق من دون إسناد، وأورده الإمام الذهبى فى مغازيه.

عنك، فدعا له النبى ﷺ وأمر النبى أن يبنى له العريش، ولما اكتفى الجمعات، أخذ الرسول يسوى صفوف المسلمين، ويحرضهم على القتال، ويرغبهم فى الشهادة، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

ورجع إلى عريشه ومعه أبو بكر، ويحرسه سعد بن معاذ متوحشًا سيفه، وأخذ الرسول ﷺ يدعو، ومن دعائه: «اللهم، أنشدك عهدك ووعدك! اللهم، إن تهلك هذه العصابة «المؤمنون المحاربون» لا تعبد فى الأرض». وأطال فى سجوده، حتى قال له أبو بكر: حسبك. فإن الله سينجز لك وعدك. ثم حمى القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قتل من المشركين نحو من سبعين، فيهم أشدهم شركًا أبو جهل، وبعض زعمائهم وأسر نحو السبعين، ثم أمر بدفن القتلى جميعًا، وعاد إلى المدينة، ثم استشار أصحابه فى أمر الأسرى، فأشار عليه عمر بقتلهم، وأشار عليه أبو بكر بالفدية، وافتدى المشركون أسراهم بالمال. وقد نزل فى معركة بدر آيات آل عمران: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧).

فقال (ما كان النبى..................؟

(قصة الأسرى)، مسلم: كتاب الجهاد والسير: (٣/ ١٧٦٣).

• الدروس المستفادة:

أولاً: حقيقة النصر من الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠).

فى هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله ويستفاد من الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه، مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم.

فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن لا يجب أن يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب؛ حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر

الذى كان فى بدر، وقتلهم المشركين، ورمى النبى ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر، إنما كان فى الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته.

– وبهذه الآية الكريمة يربى القرآن المسلمين، يعلمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٧).

● كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة فى صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة فى صف المشركين، وقد قتلوا جميعًا فى المبارزة الأولى.

– كان أبو بكر فى صف المسلمين – وكان ابنه عبد الرحمن فى صف المشركين.

– كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز ابن عمير فى صف المشركين، ثم وقع أسيرًا فى يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصارى: شد يدك به فإن أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخى هذه وصيتك بى، فقال مصعب: إنه أخى دونك.

– إنها القيم المطروحة لتقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هى آصرة النسب والقرابة، وهى الرباط الاجتماعى.

* * *

يوم الخندق «غزوة الأحزاب»

وتسمى غزوة الخندق، وقد وقعت فى شوال من السنة الخامسة للهجرة[1] وسببها أنه لما تم إجلاء بنى النضير، قدم عدد من رؤسائهم إلى مكة يدعون قريشًا ويحرضونهم على قتال الرسول، فأجابت قريش لذلك، ثم ذهب رؤساء اليهود، وهم سلام بن أبى الحقيق، وحيى بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن الحقيق، وهوذة بن عيس الوائلى، وأبو عمار[2] إلى غطفان، فاستجابت لهم بنو فزارة وبنو مرة، واتجهوا نحو المدينة، فلما سمع ﷺ بخروجهم، استشار أصحابه، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق حول المدينة [3].

فأمر الرسول ﷺ بحفره وعمل فيه بنفسه، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب، راعها ما رأت من أمر الخندق؛ إذ لا عهد للعرب بمثله، وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حيى بن أخطب - أحد اليهود الذين هيجوا قريشًا والأحزاب ضد المسلمين - قد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بنى قريظة يطلب إليه نقض عهد السلم بينه وبين المسلمين، فما زال يقتله فى الذروة

---

(١) ذهب جمهور أهل السير والمغازى إلى أن الغزوة كانت فى شوال من السنة الخامسة (انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٤٤٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٢٣٧).

(٣) انظر: المغازى الواقدى: (٢/ ٤٧٧).

والغارب حتى استجابت بنو قريظة لنقض العهد، وانضموا إلى الأحزاب، فاشتد الأمر على المسلمين، وفكر النبى ﷺ فى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التى جاءت فى هذه الاتفاقية المقترحة:

(١) عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

(٢) توادع غطفان المسلمين، وتتوقف عن القيام بأى عمل حربى ضدهم «خاصة فى هذه الفترة».

(٣) تفك غطفان الحصار عن المدينة، وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

(٤) يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع.

– المهم – «فقد ذكر الواقدى: أن رسول الله ﷺ قال لقائدى غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب، قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا فى عشرة من قومهما، حيث تقارب الأمر، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازًا بدينهم والمواثيق أن يعطوا الدنية لهؤلاء الخائنين للعهود والمواثيق، وبدأ القتال باقتحام بعض فرسان المشركين للخندق من إحدى نواحيه

الضيقة فناوشهم المسلمون وقاتلوهم، ثم جاء نعيم بن مسعود بن عامر إلى الرسول ﷺ فأخبره أنه قد أسلم، وأن قومه لا يعلمون بإسلامه، وأنه صديق لبنى قريظة يأتمنونه ويثقون به، وقال للرسول ﷺ: مرنى بما شئت، فقال له الرسول ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فاستعمل نعيم دهاءه حتى فرق بين قريش وحلفائها، وبين بنى قريظة، وأوقع فى نفوس كل من الفريقين الشك فى الآخر، وأرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة فى ليلة شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفى قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلأت نفوس الأحزاب بالرعب، ورحلوا فى تلك الليلة، فلما أصبح الصباح نظر المسلمون فلم يروا أحدًا.

ثم يصف موقف المنافقين وتخزيلهم وانسحابهم من المعركة الأحزاب (٢٢ - ٢٥).

● **الدروس المستفادة:**

أولاً - المعجزات الحسية لرسول الله ﷺ:

يزعم اليهود والنصارى أن عدم إيمانهم برسول الله ﷺ أنه لم يأتى بمعجزة حسية وهذا كذب واختلاق!

ففى صحيح البخارى: كتاب المغازي، باب «غزوة الخندق» رقم: (٤١٠١) من حديث جابر بن عبد الله. والقصة طويلة.

● ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق، إخباره ﷺ عمار بن ياسر، وهو يحفر معهم الخندق بأنه ستقتله الفئة الباغية، فقتل فى صفين وكان فى جيش علىّ. انظر السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٤٤)، وعندما اعترضت صخرة الصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ثلاث ضربات فتفتت، قال إثر الضربة الأولى (الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذه الساعة [1].

وقد تحققت هذه البشارة التى أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والأخبار عنها فى وقت كان المسلمون فيه محصورين فى المدينة يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس.

ثانيًا: بين التصور والواقع

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله وصبحتموه، قال: نعم يابن أخى، قال: فكيف كنتم تصنعون، قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض. ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة يابن أخى، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق...

---

(١) انظر: نضرة النعيم: (١/ ٣٢٥).

(١) ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معكسر المشركين هذا تابعى يلتقى بالصحابى حذيفة، ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، الخيال شىء والواقع شىء آخر والصحابة ﷺ بشر، لهم طاقات البشر، وقد رأتهم، وقد قدموا كل ما يستطيعون، فلم يبخلوا بالأنفس، فضلاً عن المال والجهد، وقد وضع الأمور فى نصابها بقوله: «خير الناس قرنى»، فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

ثالثاً: الحلال والحرام

عرضت قريش فداء مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ: ادفعوا إليهم جيفته فإنه خبيث بخيفة، خبيث الدية فلم يقبل منهم شيئاً.

حدث هذا والمسلمون فى ضنك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام فى الحلال والحرام، فأين هذا من بعض المسلمين، الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا ومتشابهه.

رابعاً: الصلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» البخارى، كتاب المغازى. وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة الوسطى هى العصر.

«يوم خيبر»

بقى أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء:

أعراب البادية الذين يسيحون فى عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يعقلون شيئًا، فإذا لاح مغنم طاروا وراءه، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر.

وبنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكرًا عليهم، فهم لا يفتئون يجبهون المسلمين ويكذبون محمدًا ويجحدون رسالته، وقد أغرتهم القشور التى ورثوها فى التوارة، فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم، ثم ذهبوا إلى حد التألب عليهم كما رأيت، فكانت سيرتهم مزيجًا غريبًا من الحقد والكبر والدس. وجمعت عداوة الإسلام بين الأعراب البله، وأهل الكتاب اليهود، وعندما فشلت الأحزاب فى اقتحام يثرب، وجنت قريظة عقبى غدرها، لم يهدأ يهود خيبر، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين، كلا.... إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضاربين حولهم؛ ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى تكيد من جديد لمحمد وصحبه، لكن المسلمين كانوا أيقاظًا لهذه المؤامرات، فما إن عادوا من عمرة الحديبية، آخر السنة السادسة، حتى توجهوا فى المحرم من السنة السابعة إلى خيبر ليكسروا شوكة بنى إسرائيل بها[1].

---

(١) ذكر ذلك ابن إسحاق، وأكد ذلك ابن حجر، انظر فتح البارى: (١٦ - ٤١)، والسيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٥٠٠).

ولم يفت المسلمين قبل مسيرهم - أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان، فأوهموا غطفان أن الهجوم متجه إليهم، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم. قال ابن إسحاق: بلغنى أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر، جمعت له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا صاروا مرحلة، سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهلهم حسًا، فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم، فرجعوا على أعقابهم، وأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر!!

وهكذا نجحت الخطة فى عزل خيبر عن حلفائهم المشركين.

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية، على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر وشدة بأس رجالها، وعتادها الحربى، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبى ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا» البخارى[1] وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «خرجنا مع النبى إلى خيبر فسرنا ليلاً»[2].

فلما أشرف رسول الله ﷺ على القرية: المحصنة وتهيأ لمنازلة أهلها، قال لأصحابه: قفوا، ثم تضرع إلى الله بهذا الدعاء: «اللهم،

---

(١) رواه البخارى - كتاب الدعوات رقم: (٦٣٨٤).

(٢) رواه البخارى - كتاب المغازى رقم: (٤١١٦).

رب السموات وما أظللن، ورب الأراضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها[١]».

ولما أدرك رسول الله ﷺ الليل، أمر الجيش بالنوم على مشارف خيبر، ثم استيقظوا مبكرين، وضربوا خيامهم ومعسكرهم بوادى الرجيع، «وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان، حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان»[٢].

ولما أصبح الصبح خرجت اليهود بمساحيهم - المساحى: جمع مفردها مسحاة، والمسحاة المجرفة من الحديد - ومكاتلهم - المكاتل: جميع مكتل، وهو المقطف الكبير -.

فلما رأوا جيش المسلمين؛ قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبى ﷺ الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا باحة قوم فساء صباح المنذرين[٣].

هرب اليهود إلى حصونهم، وحاصرهم المسلمون، وأخذوا فى فتح حصونهم، واحدًا تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم «ناعم»،

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم: (٢/ ١٠٠)، قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبى.

(٢) انظر: الصراع مع اليهود: (٢ - ٤٥).

(٣) انظر: البخارى، كتاب الأذان رقم: (٦٢٠).

والصعب، بمنطقة النطاة، وأبو النذار بمنطقة الشق، وكانت هاتان المنطقتان فى الشمال الشرقى من خيبر، ثم حصن القموص المنيع، فى منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبى الحقيق، ثم أسقطوا حصنى منطقة الوطيح والسلالم [1].

والقرية الفاجرة تجر نفسها للهلاك إن عاجلاً وإن آجلاً، روى عن رسول الله ﷺ: «إذا شاع الزنا والربا فى قرية، فقد أحلت لنفسها غضب الله».

حديث صحيح، أخرجه الحاكم: (٢ - ٣٧) من حديث ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى.

وشن المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم حصنًا بعد حصن، ودافع اليهود عنها دفاع المستميت، فإن خيبرًا أخصب أرضهم وأمنع بقاعهم، ولما بدأ الحصار يمتد وبنو إسرائيل إذا سقطت لهم قلعة تمسكوا بأخرى.

قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»!

فبات الناس يذكرون أيهم يعطاهم»!؟.

فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخذها فنادى النبى ﷺ علىَّ بن أبى طالب فأعطاها إياه، فقال علىّ: يا رسول الله، أقاتلهم

---

(١) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٥٠١).

حتى يكونوا مثلنا، قال: أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا - خيرٌ من أن يكون لك حمر النعم[١] وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مرحب، وكان سببًا فى استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علىّ فقتله[٢].

وقيل قتله محمد بن مسلمة، مما أثر سلبًا فى معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم[٣].

● **الدروس والعظات:**

(١) والعظة التى نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء، أن الأرض لله يورثها من يشاء، وهو لا ينتزعها من قوم، ويعطيها آخرين محاباة، كلا... ولكن الأمة التى تفسد على النعمة تسلبها. ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها! والأمة التى تتكبر مع الحرية وتتبطر، تفقد امتلاكها لنفسها وحقها وأمرها لتقع فى أسار الآخرين، فيصرفون شئونها كما يشتهون - وقد طبق هذا القانون على بنى إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوارة واتبعوا الهوى! وطبق بعد ذلك على المسلمين يوم سدروا فى الغواية، وجحدوا ما لديهم من هداية.

---

(١) أخرجه البخارى: (٧/ ٣٨٤ - ٣٨٥)، ومسلم: (٧/ ١٢١ -١٢٢) من حديث سهل بن سعد.

(٢) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية (٥٠٢).

(٣) المصدر السابق.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود ١٠٢).

(٢) ودرس آخر نستفيده من سيرة الرسول ﷺ فى حروبه ومعاركه، هو موقفه من اليهود، وموقف اليهود منه وفى دعوته، فلقد حرص الرسول ﷺ أول مقامه فى المدينة أن يقيم بينه وبينهم علائق سلم، وأن يؤمنهم على دينهم وأموالهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، ولكنهم قوم غدر، فما لبثوا غير قليل حتى كشفوا عورة المرأة المسلمة فى سوق بنى قينقاع؛ مما كان سببًا فى غزوة بنى قينقاع، ثم تآمروا على قتله، مما كان سببًا فى «غزوة بنى النضير» ثم نقضوا عهده فى أشد المواقف حرجًا «يوم الأحزاب» مما كان سببًا فى غزوة بنى قريظة» ثم تجمعوا من كل جانب يهيئون السلام ويتبعون الدسائس، ويتجمعون ليقضوا فى غدر وخسة على المدينة والمؤمنين فيها، مما كان سببًا فى «غزوة خيبر» - هؤلاء قوم لا تنفع معهم الحسنى، ولا يصدق لهم وعد ولا يستقيم لهم عهد، وكلما وجدوا غرة اهتبلوها، فهل كان على النبى من حرج فيما فعله بهم؟

وهل كان عليه أن يتحمل دسائسهم وخياناتهم ونقضهم للعهود، فيعيش هو وأصحابه دائمًا فى جو من القلق والحذر وانتظار الفتنة والمؤامرات؟

لقد ضمن النبى ﷺ بحزمه معهم حدود دولته الجديدة، وانتشار دعوته فى الجزيرة العربية كلها، ثم من بعد ذلك إلى أرجاء العالم،

ولا يلوم النبى على حزمه معهم إلا يهودى متعصب أو استعمارى.

«يـوم الفتـح الأعظـم»

كان فى رمضان، للسنة الثامنة من الهجرة.

سببه: أن صلح الحديبية أباح لكل قبيلة عربية أن تدخل فى عقد رسول ﷺ، إن شاءت، أو تدخل فى عقد قريش، فارتضت بنو بكر أن تدخل فى عقد قريش، وارتضت خذاعة أن تدخل فى عقد رسول ﷺ وفى تلك السنة «الثامنة» اعتدت بنو بكر على خذاعة، فقتلت منها نحو عشرين رجلاً[1]، وأمدت قريش بنى بكر بالمال والسلاح[2] فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ غضب غضبًا شديدًا[3] وتجهز لقتال قريش إلا أنه لم يرد أن يخبر الناس عن وجهته؛ لئلا تستعد قريش[4] فتستباح حرمة البلد الحرام، وتمتلئ أرجاؤه بأشلاء القتلى، ولكن حاطب بن أبى بلتعة البدرى، أرسل كتابًا سريًا إلى مكة يخبرهم فيه بتوجه الرسول إليهم.

فأطلع الله رسوله على أمر الكتاب، فأرسل إلى المرأة التى تحمله بعض أصحابه ليفتشوها فعثروا على الكتاب، فدعا الرسول ﷺ

---

(١) انظر: الواقدى: (٢/ ٧٨١ - ٧٨٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام: (٤/ ٣٩).

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٤٤).

(٤) انظر: البداية والنهاية: (٤/ ٢٨٢)، الرسول القائد، شيت خطاب (ص ٣٣٣، ٣٣٤).

حاطبًا، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا رسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنى امرؤ ليس فى القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق فقال ﷺ: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1] فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة: ١).

ثم سار الرسول ﷺ من المدينة لعشر مضين من رمضان، وفى الطريق أفطر، وأفطر الناس معه [2] لقوا من الجهد والمشقة فى سفرهم، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلف، ثم انضم إليه فى الطريق عدد من قبائل العرب «وفى مر الظهران» عثر حرس رسول الله ﷺ على أبى سفيان بن حرب واثنين معه فأسرهم وجاءوا بهم إلى النبى ﷺ، فأسلم أبو سفيان، وقال العباس - الذى لقيه

(١) انظر: البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة الفتح: (٥/ ١٠٥).
(٢) البخارى: كتاب المغازى: (٥/ ١٠٦) رقم: (٤٢٧٦).

الرسول فى الطريق مسلمًا مهاجرًا إلى المدينة -: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا يفتخر به، فقال: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» [١].

ثم وصل الجيش مكة فأعلن منادى الرسول ﷺ: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، واستثنى من ذلك خمسة عشر رجلاً عظمت جريرتهم فى حق الإسلام ورسوله، (انظر السيرة النبوية لأبى شهبة)، ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وهو راكب راحلته منحن على الرحل[٢]، شكرًا لله على هذا الفتح الأكبر، ثم طاف الرسول بالبيت، وأزال ما حولها من أصنام بلغت ثلاثمائة وستين[٣]، ثم دخل الكعبة وصلى ركعتين فيها، ثم وقف فى بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها، فقال فيما قاله ساعتئذ: «يا معشر قريش، ما تظنون أنى فاعل؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم[٤]، فقال رسول الله ﷺ: اليوم أقول لكم ما قال أخى يوسف من قبل: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين. ثم اجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام: (٢/ ٢٦٨) عن ابن إسحاق، ورواه الطبراني، رجاله رجال الصحيح، ثم أخرجه ابن إسحاق ومسلم.

(٢) رواه مسلم برقم: (١٣٥٨).

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوى: (٣٣٩).

(٤) سيرة ابن هشام: (٤/ ٦١، ٦٢).

ﷺ على الإسلام، فجلس إليهم الرسول على الصفا، وأخذ بيعتهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، بايع الرجال أولاً ثم النساء، ولم يصافح واحدة منهن، وكان فيمن بايعهن هند زوجة أبى سفيان التى أهدر الرسول دمها. فيمن أهدر يوم الفتح، فلما علمها عفا عنها وقبل بيعتها.

وفى يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن لصلاة الظهر على ظهر الكعبة، فاستعظم ذلك الحاضرون من قريش، ولما يسلموا بعد، ولكن رسول الله ﷺ أراد ذلك عمدًا لسر عظيم وحكمة بالغة.

• من نتائج فتح مكة:

(١) دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوش الشرك فى حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.

(٢) أصبح المسلمون قوة عظمى فى جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش فى الإسلام، وبرزت قوة كبرى فى الجزيرة العربية لا يستطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجهها، وهى مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة لإزالة حكومات الظلم والطغيان وتأمين الحرية لخلق الله لكى يدخلوا فى دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه [١].

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية - أحمد عرموش (١٢٩).

(٣) وكان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر فى هذا الفتح المبارك.

● فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت فى رفقه ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيه إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذى سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم ويفقههم فى دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه فى مكة بعد انصرافه عنها؛ ليصلى بالناس ويفقههم فى دينهم.

● وأما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة يحكم فى الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم[1].

– وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده؛ فدخلوا فيه أفواجًا[2].

(٤) تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين، بعدما ضحوا بالغالى والنفيس، وحققوا شروط التمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه كسنة الابتلاء والتدافع، والتدريج، وتغيير النفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة، وهى

---

(١) انظر: تأملات فى سيرة الرسول ص (٢٦٦).

(٢) انظر: المصدر السابق: (٢٦٧).

وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصلاة بعد أن عذب فى بطحاء مكة وهو يردد: أحد أحد فى أغلاله وحديده، ها هو ذا اليوم قد صعد فوق الكعبة ورفع صوته الجميل بالأذان وهو فى نشوة الإيمان.

من الأحكام الشرعية التى تؤخذ من يوم الفتح:

١ - جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر فى غير معصية، حيث صام الرسول ﷺ فى مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدة فافطر(١).

٢ - صلى النبى الضحى ثمانى ركعات خفيفة (٢) واستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة (٣).

٣ - قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبى بمكة تسعة عشر يومًا بقصر الصلاة (٤).

(٤) تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام (٥).

والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح (٦).

(٥) عدم جواز الوصية لأكثر من ثلث المال كما فى قصة سعد بن

---

(١) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٥٧٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) انظر: المجتمع المدنى ص (١٨٥).

(٥) انظر: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية ص (٥٧٥).

(٦) المصادر السابقة.

أبى وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول ﷺ فى أن يوصى بأكثر من الثلث [١].

٦ - تحريم مصافحة النساء ولما فرغ رسول ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء. وقد بايعهن ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له؛ أو ذات محرم منه.

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» وفى رواية: ما كان يبايعهن إلا كلامًا ويقول: «إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة».

«يوم الوفاة»

تُوفى رسول الله ﷺ بعد أن كان قد علم من طريق الوحى بقرب أجله، فودع الناس فى حجة الوداع. وكانت قلوب الصحابة واجفة هلعة؛ خشية أن يكون أجل رسول الله قد اقترب؟ ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر فلما أشيع عن وفاة الرسول ﷺ اضطرب الصحابة جميعًا لهول الكارثة، وزلزلت المدينة زلزالها، وطاشت عقول كثير من كبار الصحابة والسابقين إلى الإسلام، فمنهم من عقل لسانه، ومنهم من أقعد عن الحركة، ومنهم عمر من شهر سيفه ينهى الناس أن يقولوا: إن رسول الله ﷺ مات، ويزعم أنه غاب، وسيرجع إليهم. ولكن أبا بكر وحده هو الذى كان ثابت الجأش، فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى على فراشه فقبله، وقال له: بأبى أنت وأمى يا

---

(١) المجتمع المدنى للعمرى ص (١٨٦)، والسنن للترمذى: (٣/ ٢٩١).

رسول الله! ما أطيبك حيًا وميتًا! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدًا يا رسول الله، اذكرنا عند ربك، ثم خرج أبو بكر إلى الناس، فخطب فيهم، وقال: أيها الناس: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فلما تلاها أبو بكر، أفاقوا من هول الصدمة، وكأنهم لم يسمعوها من قبل.
قال أبو هريرة: قال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر تلاها فعقرت (أى دهشت تحيرت)، حتى وقعت إلى الأرض وما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله قد مات (انظر: البخارى: كتاب المغازى رقم: (٤٤٥٢).

• الدروس المستفادة:

١ – أن الصحابة دهشوا لموت رسول الله ﷺ حتى لكأن الموت لا يمكن أن يأتيه، مع أن الموت نهاية كل عبد، وما ذلك إلا لحبهم لرسول الله ﷺ حبًا امتزج بدمائهم وأعصابهم، والصدمة بفقد الأحباب تكون على قدر الحب، ونحن نرى من يفقد ولدًا أو أبًا كيف يظل أيامًا لا يصدق أنه فقد، وأى حب فى الدنيا يبلغ حب هؤلاء الصحابة الأبرار لرسول الله ﷺ الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور وغير

لهم حياتهم، وسما بهم إلى مراتب القادة العظماء، ثم هو فى حياته مربيهم وقاضيهم ومرشدهم يلجئون إليه فى النكبات، ويسترشدونه فى الحوادث، ويأخذون منه خطاب الله لهم وحديثه إليه، وتعليمه لهم، فلما مات رسول الله انقطع ذلك كله، فأى صدمه أبلغ من هذه الصدمة وأشدها أثرًا؟!

ثانيهما:

٢ - أن موقف أبى بكر دل على أنه يتمتع برباطة جأش وقوة أعصاب عند النكبات لا يتمتع بها صحابى آخر، وهذا ما يجعله أولى الناس بخلافة رسول الله ﷺ.

وقد أثبت ذلك فى حركة الردة فى جزيرة العرب.

* * *

«خاتمـــة»

لم تمض أيام معدودات على وفاة الرسول حتى اشتبك الإسلام فى صراع رهيب على الوثنية التى عاودتها الحياة فجاءة والصليبية الرابضة فى شمال الجزيرة تمنع الدخول فى الإسلام، وتحبط دعايته، بالقوة ولم تشهد الصحراء فى حياة النبى ﷺ نفسه مثيلاً لهذه المعارك الطاحنة فقد اتسعت ميادينها وتتابعت أمدادها وفتحت مغارمها وكثرت ضحايها، إلا أن الرجال الذين رباهم محمد ﷺ على معرفة الحق والفناء فيه صدقوا الله فى عملهم، ونهضوا كأعتى الأبطال بالأثقال الباهظة التى رموا بها فضربوا الوثنية فى الجزيرة ضربة كسرت فقارها، واعتصرت روحها، فهمدت إلى الأبد، وطردوا الرمان عند الحدود التى تمردوا بها وتجبروا فيها، ثم عادوا إلى المدينة ليستشبعوا بل لينتشروا خلال المعمورة من أرض الله يوم إذا فى نظام رتيب وبوحى شريعة محكمه.

وما هى إلا سنوات قلائل حتى كان الإسلام ملأ البر والبحر ملأ السمع والبصر، والآن وقد مرت قرون على هذه الحقبة الزاهرة.

أن الإسلام – بعد مجد كبير – لا يحكم أمته فضلاً عن أن يوجهه العالم إلى بر يذكر أو خير يشكر. وهذه أيام قدمتها توخيت فيها أن أبرز أوضح مظاهر الأسوة فى أيام من أيام رسول الله ﷺ: مما ينبغى على كل مسلم وداعية إلى الله عز وجل وعالم بالشريعة وحامل

لفقهها أن يتدبرها ويجعلها نصب عينيه؛ ليكون له شرف الاقتضاء برسول الله ﷺ وليفتح أمامه باب النجاح فى دعوته بين الناس وباب القبول والرضا من الله جل شأنه؛ وليكتب له شرف الخلود مع رسول الله ﷺ فى جنات النعيم فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (النساء: ١٣).

* * *

محتويات الكتاب